قوائم المحتويات متاحة على ASJP المنصة الجزائرية للمجلات العلمية
الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية
الصفحة الرئيسية للمجلة: www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/552

ملامح التحديث في التدين الصوفي
الزاوية العلوية أنموذجا

Features of Modernization in Mysticismes

بن دنية ميلود [1] * ، اسعد فايزة زرهوني [2]
[1] طالب دكتوراه السنة الرابعة ،جامعة عبد الحميد ابن باديس ،مستغانم – الجزائر
[2] أستاذة محاضرة ،جامعة عبد الحميد ابن باديس ،مستغانم – الجزائر

Key words:
Mysticism, Zaouia Alaouia, modernity.

Abstract

Mysticism is considered as psychological state and a behavior which gave the Muslim society educated values that contributed in building or forming a civilized human being and it has also an influential role in developing the societal and intellectual aspects. Sufism has a futuristic and developmental vision which is characterized by its modernity.

It also participated in flourishing society zaouia Alaouia in mostaganem is a sample and the impetus of rationality, reasonability and modernity.

معلومات المقال
تاريخ المقال:
الإرسال :2020-01-05
المراجعة : 2020-04-11
القبول :2020-04-25

الكلمات المفتاحية:
الإسلام الصوفي،
الزاوية العلوية،
ملامح التحديث.

ملخص

شكّل التصوف مذ ظهوره حالة روحية وعمقا اجتماعيا يجمع بين مجاهدة النفس بالاستقامة على الفضيلة والأخلاق الحميدة يرافقها سلوك عملي ومخزون ديني ورمزي ذو طابع روحي للمجتمع الإسلامي، يمثّل قوة حيوية وقدوة منيرة أثْرت المجتمعات الإسلامية بقيّم وسلوكات ساهمت في بناء إنسان محافظ على أصالته وقيّمه الإسلامية و متواصل مع تحولات مجتمعه، كما كان محركا ومنشطا لمسار الحياة في جوانبها الاجتماعية ،الاقتصادية ،الفكرية ،الثقافية والدينية.ومؤسسات ذات رؤية تنموية استشرافية ، جعلت من السلوك الصوفي وقيّمه مصدرا في تشكيل معالم الحضارة الإنسانية وإثرائها من خلال ما يحمله من تفكير عقلاني وممارسات ذات طابع حداثي وكونه عامل ازدهار وليس تخلّفا وتقوقعا داخل فضاء المقدس وترسُبات الماضي. مثّل مرحلة مفصلية في تاريخ الممارسة الدينية الشعبية على الرغم مما تعرّض له من مغالطات حاولت عزله وإختزاله في ممارسات طقوسية و احتفالية .وتُعد الزاوية العلوية بمستغانم من نماذج الطرق الصوفية العديدة التي جسّدت عبر تاريخها ملامح التحديث والعقلانية.

* Corresponding author at: University of Mostaghanem ALGERIA
Email : aymenada14@gmail.com

1ـ مقدمة

لقد كان الاعتقاد السائد ولفترة طويلة أن الإسلام الصوفي يُعد مجالا للتفكير الفلسفي و الممارسات البدعية الطرقية أكثر من كونه فكرا مستنيرا ذا طابع تنموي ، حضاري وإجتماعي، وهي موروثات وأحكام مقولبة جاهزة تنافي الحقيقة.حيث ركّزت هذه الدراسات في أبحاثها على البعد الفقهي والروحي للزوايا وأهملت أو لم تركز عمدا

أو جهلا على الأدوار العديدة والمحورية التي ساهمت بها ،كما لم تهتم بالخدمات التي قدّمتها لأفراد المجتمع في الفترات التاريخية الماضية، كونها بنت تصورا ذهنيا للمتصوفة تأسست على أنهم فئة منعزلة تمارس الطقوس والبدع وتعيش حياة التقشف والزهد.بل أنهم جزء من الماضي وأحد عوائق التقدم والتنمية والازدهار و تخلف الأمة الإسلامية وفشلها في بناء مجتمع عقلاني ، كون التصوف حسبها يُشجع على البدع وإظهار التدين السلبي. وعلى الرغم من التشويه المتعمّد أحيانا حظيت الزوايا كمؤسسات حاملة لمنهج الطرق الصوفية بمكانة رفيعة عند أفراد المجتمع بمختلف شرائحه ، وأصبحت بذلك المؤسسة المركزية التي تتمركز حولها أغلب حيثيات الحياة الإجتماعية ،كما تنطلق منها تفاصيل الحياة اليومية للأفراد ، وهي مؤشرات تؤكد وتُظهر أن هذه المؤسسات استطاعت ببنائها الاجتماعي وأدوارها المتعددة أن تتغلغل في المجتمع عبر مساهمتها في الوفاء بالكثير من الحاجات و الخدمات الإجتماعية ،التربوية، الإرشادية ،الإقتصادية وكذا القضائية بفض النزاعات والتقاضي بين الأفراد وتوفير الرعاية الصحية والنفسية والمشاركة في الحياة العامة، وكلها خدمات جسّدت الرؤية المستقبلية والاستشرافية للطرق الصوفية ونزعت عنها الصورة النمطية لذلك الإنسان القابع في زاويته منتظرا الصدقات، وأن المتصوفة عبر تاريخهم اهتموا بصناعة الخدمة الإجتماعية وتعزيز المجهود التنموي المحلي لكون "التصوف ليس مُجرد نظريات أو تصورات نفسية إجتماعية أو فلسفية بقدر ما هو طريق او أسلوب في الحياة يُمارس من أجل هدف اجتماعي" [1].

فكانت الزوايا بذلك تُعد مؤسسة التنشئة الاجتماعية الأهم التي ساعد في إنتاج ونسج وتنظيم الروابط بين أفراد المجتمع وتأطيرهم دينيا و إجتماعيا. ما ساهم في تقوية التيار الصوفي وبناء صورة ذهنية ايجابية لدى الأفراد جعلت منه المنهج المهيمن بمؤسساته وممارساته وبدون منازع في الاسلام السائد بمدن شمال إفريقيا وقراها إلى غاية القرن التاسع عشر الميلادي، كظاهرة دينية وبنية إجتماعية وقوة رمزية بدأت كإجتهادات فردية ثم تطورت لتصبح ظاهرة إجتماعية جماعية وتيارا فكريا يحمل في طياته بذورا للفكر العقلاني المنفتح الذي استطاع ابتكار منظومة من المفاهيم والقيم والممارسات التي جسّدت الفكر الحداثي "ليمثل الإستثناء ضمن جميع التيارات الإسلامية القادرة على الإصلاح وعلى إستيعاب الحداثة بفعل حيويته الدائمة"[2]، ولعلّ الزاوية العلوية بمدينة مستغانم من أهم المؤسسات ذات النهج الصوفي التي وُصفت كونها مؤسسة تقليدية في طابع عصري سعت لأجل أن تحفظ للتصوف احترامه ومكانته المشرقة داخل الفضاء السوسيولوجي بعيدا عن المظاهر الاحتفالية والفلكلورية التي انزلقت إليها الكثير من الطرق الصوفية الأخرى. وهو ما يدعونا للتساؤل عن أهم ملامح مستويات التحديث التي برزت عبر تاريخ الزاوية العلوية كطريقة صوفية؟

وللإجابة على هذا السؤال نناقش في البداية مفهوم التصوف ثم نقدم مقاربة تاريخية لظهور وتطور الزاوية العلوية وأهم المراحل التي عرفتها ،على أن نركز في الأخير على أهم الملامح التي جسدت التحديث للزاوية العلوية عبر النشاطات التي قامت بها.

2ـ التصوف مؤسسات دينية وأدوار رائدة

يُعرّف التصوف بأنه تجربة روحية ، وقيمة دينية ، وحالة إنسانية تقوم على العبادة و الإنقطاع الى الله سبحانه وتعالى والإعراض عن ملذات الدنيا والزهد فيما أقبل عليه العامة، أساسه تربية النفس والتحلي بالقيّم الكريمة والأخلاق الفضيلة.فهو حسب ابن خلدون" العكوف على العبادة والإنقطاع الى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه،والإنفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة"[3]. وهو عند البعض مدارس روحية نشأت في الإسلام "لتربية السالكين تربية إسلامية صحيحة والدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دنئ"[4]. ما جعل من التصوف منهجا وطريقا تُساعد الإنسان على مواجهة تحديات الحياة، تمظهر منذ مراحل نشأته الأولى عبر مؤسسات أضحت منذ بداياتها تُعد من أقوى الأنساق الاجتماعية المهيكلة والفاعلة في ضبط وتنظيم سلوك ومواقف الأفراد والجماعات وإتجاهاتهم وفي ضمان استقرار المجتمع عبر القوة الرمزية لشيوخها، دخلت في علاقات تفاعل وتداخل معقّدة مع المؤسسات الاجتماعية الأخرى من خلال المساهمة في تشكيل الفضاء الإجتماعي للمجتمع المحلي وفي تفاصيل الحياة اليومية للأفراد، حيث ظهر حضورها جليا في بنية ثقافتهم وقيّمهم و في مختلف أنشطتهم و أفعالهم وعلاقاتهم مشكلا بذلك تراكما معرفيا أسس لرأسمال ثقافي وإجتماعي شكّل مرجعية ثقافية ذات طابع رمزي قادر على منح الأفراد حوافز لمواجهة متطلبات الحياة المختلفة، تستثمر فاعليتها كقيّم أخلاقية وطاقة روحية وقوة رمزية في تحقيق أهداف وغايات إجتماعية انطلاقا مما تحمله من قواعد ومبادئ تدعو الى تقديس العمل و الأمانة و الإتقان والسعي إلى تحقيق الغايات والأمر بالمعروف والصدق في القول والعمل والإجتهاد وحسن الخُلق والإحسان، وغيرها من القيم التي تُشكل ثقافة دينية يمكنها أن تبلور مسارا للتفكير والسلوك الذي يُشكل أساس للبناء الاجتماعي والتأطير النهضوي . فظهرت

بذلك قوة الزوايا وشيوخها والتي استطاعت أن تجمع الناس حولها وتُؤسس لمرحلة جديدة في التاريخ الإسلامي من خلال السعي لتنظيم وتشكيل المجتمع في جوانبه الروحية ،الفكرية والسلوكية للإنسان، و الاستجابة لحاجات وتطلعات البناء الإجتماعي.

3ـ الزاوية العلوية مؤسسة تقليدية في نمط عصري

تُعد الزاوية العلاوية لشيخها مصطفى أحمد العلاوي المستغانمي (1869-1934) من أبرز الطرق الصوفية التي جسّدت عبر تاريخها فكرة الزاوية العصرية الحداثية من خلال سعي شيوخها تجديد الممارسة الصوفية وإخراجها من القبب والزوايا والدروشة و الروحانيات إلى فكر عقلاني حداثي حضاري ينسجم مع خصوصيات ومتطلبات المجتمعات العصرية . كما أسّس لثقافة حوار الحضارات والأديان وهو ما يفسر كثرة ترحال الشيخ الأول للدول الاسلامية وغير الإسلامية محاورا هادئا مقنعا بالحجة ، وما كان لذلك من دور وتأثير على دخول الكثير من الغربيين إلى الإسلام و" أن الجاذبية القوية للشيخ العلاوي أثّرت في بعض الأوروبيين فصاروا من أتباعه ، والدور الذي قامت به طريقته في إدخال التصوف إلى فرنسا وبلدان غربية أخرى يثبتان التطابق بين الولاية التي يمثلها وطبيعة الوسط الذي دعا لتمثيل التصوف فيه "[5]. فتصوف الطريقة العلوية بذلك لم يكن تصوفا سلبيا يركن فيه صاحبه ويدعو إلى التواكل والتكاسل و العزلة عن المجتمع و الإنقطاع عن المشاركة في الحياة العملية ،بل كان تصوفا إيجابيا يدعو إلى العلم والعمل والسعي والمشاركة في الحياة و غرس فن صناعة الحياة في عقول مريديها حتى سمي شيخها الأول بالشيخ المجدد لما حمله من فكر تجديدي وعقل تنويري .

إذ ومنذ نشأة الزاوية العلوية عام 1914 لم تكن أماكن للعبادة والذكر بقدر ما كانت تمثّل مدرسة ذات طاقة روحية وسلطة رمزية تتبلور عبرها كل النشاطات التي تُساهم في تشكيل شخصية المواطن الذي يجمع بين أصالته وفكره المتفتح، فساهمت بذلك في تعزيز وتثبيت دعائم الذات الجزائرية عبر المساهمات والخدمات التي قدمتها. إذ وعلى الرغم من حالة الجمود التي اتسمت بها الطرق الصوفية في المجتمع الجزائري خلال تلك الفترة إلا أنها حاولت ومنذ نشأتها اعتماد خط التجديد في وسائلها و أساليبها ونهجها الفكري والإبتعاد عن إعادة انتاج وممارسة ما هو قائم من أفكار وسلوكات. فلم تعُد على تلك الصورة النمطية التقليدية التي اعتاد الناس على رؤيتها ،كما لم يعُد شيوخها ومريديها على صورة ذلك الرجل الصوفي التقليدي الذي يرتدي الخشن من اللباس والزاهد في الحياة .بل كان لها الفضل في أن تجعل من التصوف مؤسسات وممارسات يختلف عن التصوف الفسلفي الطرقي الطقوسي القائم على الأذكار والأوراد والعيش على هامش المجتمع ، بل قدّمت نفسها منذ البداية كمؤسسة تحمل رؤية مستقبلية شاملة للحياة. ما جعل منها حركة صوفية ومؤسسة دينية اجتماعية عابرة للحدود المحلية ، لتصبح أنموذجا لمؤسسة دينية صوفية عصرية نظير ما بادرت به من مشروعات حداثية تُشرف عليها وتساهم في تمويلها من الأملاك الخاصة للشيوخ وتبرعات المحسنين.

إن الزائر للزاوية العلاوية اليوم يمكنه إدراك العديد من صور التحديث التي تتجلى عبر العديد من المرافق والمؤسسات التابعة لها .حيث لم تعد مكانا للإنزواء والتعبد والعزوف عن الدنيا طلبا للنجاة، بقدر ما هي بنية تنظيمية تحمل كل مقومات المؤسسات المدنية المتفتحة على العالم الخارجي ، بما ابتكرته لنفسها من إستراتيجية جديدة تتماشى مع روح العصر ،كما تظهر ملامح التحديث للزاوية من خلال تجاوزها التركيز على الممارسات الروحية والنقاشات الفلسفية إلى السعي في تحقيق التنمية الفكرية و الإجتماعية عبر استغلالها للأدوات والوسائل العصرية كالصحافة والإعلام والتأليف والتعليم ، إضافة الى الجمعيات والنوادي و المساهمات الفكرية والعلمية بالإشراف و المساهمة في تنظيم المعارض والملتقيات الدولية والوطنية والأيام الدراسية والمنتديات العلمية والمحاضرات التي تناقش قضايا فكرية تنموية في المجالات والمحاور العلمية المختلفة المتعلقة بشؤون البيئة والزراعة والاقتصاد والتعليم وغيرها من المجالات ،كما اهتمت بقضايا التنمية والثقافة وشؤون المرأة، ولعل أبرز النشاطات التي بادرت إلى تنظيمها والإشراف عليها الملتقى الدولي حول السماع الصوفي سنة 2016. والمؤتمر الدولي الأول للأنوثة من أجل ثقافة السلام سنة 2014 ، وكذا الندوة العالمية للإسلام الروحي والتحديات المعاصرة بباريس بفرنسا سنة 2015. والندوة الدولية حول الرياضيات والعيش معا سنة 2018، بالإضافة الى الملتقى الدولي حول التراث الاسلامي معنى وجوهر بتونس 2019. كما أشرفت على تنظيم الملتقى الوطني حول الأكل الطبيعي في الجزائر بين التقليد والمعاصرة عام 2013. والملتقى الوطني حول مكانة المرأة المسلمة بين الشريعة والقانون سنة 2014 .كما أشرفت على تنظيم الملتقى الوطني حول الاقتصاد الاجتماعي والتضامني سنة 2015. إضافة الى الملتقى الوطني حول المقاولاتية التضامنية في التراث الجزائري عام 2016. كما عملت على المشاركة في إنشاء فرق بحثية بالتنسيق مع مخابر بحث جامعية ، وصولا إلى الإهتمام بالقضايا الدولية عبر منابر الهيئات العالمية و المساهمة من خلال الشيخ الحالي للطريقة خالد بن تونس ضمن مشروع السلام العالمي ودورها في الإعتراف باليوم العالمي للعيش معا في سلام المصادف للسادس عشر من شهر ماي و الذي اعترفت به هيئة الأمم المتحدة، فاستطاعت بذلك وبفضل هذه الآليات والنشاطات المحافظة على مقومات الهوية الدينية الإسلامية، وأضحى لها صوتا كونها مؤسسة دينية عصرية مكّنت من التلاؤم وضرورات المرحلة وكون " الصوفي الحقيقي ليس هو الذي يعزل نفسه وغيره بين جدران زاويته ويعتني بالرسوم والأوراد من دون

العناية بالمجتمع الذي لا يمكن إهماله، فالمجتمع هو مجال تفعيل تعاليم التصوف التي يقتضيها القرآن الكريم وسنة نبيه (ص). فالعمل الروحاني يتطلب جهودا ضخمة من أجل أن يتم له النجاح ،فلا نستغرب إن استعمل الصوفي وسائل تنظيمية لعمله في مجال الحياة بكل أبعادها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، كون طريق التصوف هو طريق عملي يتماشى تماما مع الحياة لأجل إيجاد حلول يجب القيام بالعمل ومقاومة الأمور ومواجهة المشاكل، كل ذلك بميزان وهذا لا يعني بطبيعة الحال الإرتماء بالجسد والروح في أحضان الحياة المادية إلى حد الغرق. وفي هذا الموضوع يقول الصوفية دائما تعاملوا مع الدنيا بأيديكم ولا تدعوها تدخل أبدا إلى قلوبكم لأن الأيدي تغسل أما القلوب فلا"[6]. ما جعل منها منارة عصرية في أساليبها ووسائلها ، إذ ما يُعرف عن الطريقة العلاوية "أنها طريقة عصرية في أساليبها التنظيمية لكنها من حيث المنهج تحافظ على نفس أركان التصوف كما وضعه الأوائل كالذكر والخلوة والمجاهدات والإهتمام بالأوراد وبأنها طريقة عصرية عند البعض، لماذا؟ لأن الشيخ استعمل وسائل حديثة لبث أفكاره وتعاليمه وسائل لم تستغلها الطرق الصوفية الأخرى المختبئة خلف حيطان الزوايا والخلوات والعبادات الليلية والسرية. أما الشيخ ابن عليوة فقد اشترى مطبعة للزاوية، وأسّس صحفا كانت تنشر نشاطه. .. وبفضل هذه الوسائل وأمثالها انتشرت الطريقة العليوية إنتشارا سريعا و واسعا لم تحظ به الطرق الأخرى..وأن الجميع متفقون على أن الطريقة العلوية جديدة وعصرية وغير عادية بين الطرق"[7]. ما جعلها من أحدث الطرق الصوفية وأكثرها انتشارا وتأثيرا" وأكثرها دقة وتنظيما فقد استعملت منذ تأسيسها أحدث وسائل الإتصال وهداية الناس والدعوة الى الإسلام وبث تعاليم الطريقة ومبادئها ،كإصدار الجرائد وطبع الكتب ،تنظيم الملتقيات ،إلقاء المحاضرات وإنشاء النوادي والجمعيات للدفاع عن الإسلام والدعوة اليه داخل الوطن وخارجه"[8].

لقد تبنت الزاوية العلوية منذ نشأتها فلسفة الإصلاح والتجديد على الرغم من وفائها لنهجها وجذورها الصوفية، حيث أكّد كل من عرف وعايش الشيخ الأول للطريقة مصطفى العلوي أنه كان مجددا في فكره وحياته. فجسّد ملامح التحديث على مستوى حياته الخاصة والعائلية وفي طريقة هيكلة وتنظيم وتسيير الزاوية. يقول الشيخ ناصر الدين الحسيني واصفا الشيخ العلاوي "أنه رجل عصري بإمتياز فقد واكب أحدث التقنيات العلمية والمعرفية في عصره، وعرف كيف يستخدمها ليستفيد منها في أعماله المتعددة ،فكان من الأوائل الذين اشتروا السيارة لإستعمالها في تنقلاته وربط بيته بشبكة الكهرباء والهاتف وحارب الجمود والركود والتكاسل والتواكل ودعا الى الإجتهاد ومارس التفتح في أوسع مدى"[9].كما نجد المستشرق أوغستين بيرك يصف الشيخ العلوي "أنه نموذج للمرابط العصري المساير للتطور والميّال للمصالحة ،فقد شكّل سعيه لها أحد ركائز مشروعه الإصلاحي الذي يهدف إلى حفظ دين الأمة ، إنه مبشر حديث يجمع بين الثقافة الإسلامية و الانضباط الأوربي"[10]، وأنه نموذج للمتصوف المتحضر الذي أدخل إصلاحات على التصوف الريفي.و في نفس السياق نجد الباحثة الفرنسية المختصة في التصوف ايفا ميروفيتش تؤكد على "أن الشيخ العلوي كان في قائمة مجددي الصوفية في القرن التاسع عشر ومن الأعلام الذين بعثوا في الخطاب الصوفي روحا جديدة[11]. كما وصفه الدكتور بروبست بيرابين "على أنه الشيخ المتواضع الذي أخرج مريديه من عبودية المال والبذخ والمجد والكبر والحقد ، و أثبت وجود مواطن قوة مجهولة و إمكانيات تطور وإرتقاء في الإسلام الذي اعتقد الكثيرون بموته الى الأبد"[12].

وكلها دلائل ومؤشرات على أن الزاوية العلوية سعت إلى إدخال العديد من العناصر التحديثية على التقليد الصوفي الجزائري بإزالة الفكرة النمطية عن الزوايا بوصفها تجمعات تقليدية إلى كونها بنية تنظيمية متكاملة ومؤسسة ذات رؤية تنموية دائمة التجدد والتكيف مع التغيرات والمستجدات المتسارعة في الخطاب والممارسة عبر تبنيها الكثير من مقومات الإصلاح الفكري و الديني لتؤسس لفكرة ديناميكية العقل الصوفي وقابليته للتحول والتجدد والتواصل مع متطلبات العصر. وهو ما جعل منها حركة صوفية ومؤسسة دينية إجتماعية عابرة للحدود المحلية عبر انتشارها في العديد من الدول العربية و الإفريقية والأوروبية .فأصبحت نموذجا لمؤسسة دينية صوفية عصرية نظير ما بادرت به من مشروعات حداثية تشرف عليها وتُساهم في تمويلها من الأملاك الخاصة للزاوية وتبرعات المحسنين عبر توظيفها لقدراتها الاجتماعية وطاقاتها الروحية وقوتها الرمزية لخدمة مشاريعها الإصلاحية التجديدية في إطار مقاربة العمل التشاركي التضامني ، واستثمارها لموارد الثقافة الإسلامية التي تأسّست على فكرة العطاء والإيثار المتجذرة في قيّم المجتمع المحلي لتوفر من خلالها حافزا للإلهام والتأطير لأفراد المجتمع في تعزيز المشروعات الخيرية التي سعت الى الإشراف عليها. وهو ما جعلها تسعى منذ نشأتها إلى التميّز عن المؤسسات الصوفية الأخرى والاندماج بالعالم الحديث عبر التوفيق بين القيم العصرية والروحية و بالتأكيد على أن التراث الاسلامي يحمل مشروعا حداثيا وجب استغلاله لتحقيق تنمية شاملة. و"كون أن شعار الصوفي في الحياة هو أن يكون ابن اللحظة او ابن عصره ،كما يعتبر نفسه صدى للإيحاء القرآني الذي يقول 'كل يوم هو في شأن ' وبالتالي فكونه ابن اللحظة يتطلب منه جاهزية كاملة لإستقبال التجليات المتواصلة"[13].

فكانت تدعو إلى الاهتمام بالتعليم والعلوم التقنية الحديثة ومسايرة مستجدات العصر وعدم تقوقع المسلمين في فضاء العلوم الشرعية وإهمال العلوم الأخرى ، كما كانت تدعو إلى رفض الوصاية الروحية على العقل المسلم ، و ظهر ذلك من خلال تكريس جهودها لتمكين العلم و الحداثة عبر مشروعاتها التعليمية والتكوينية التي دأبت على ابتكارها وتشجيعها ، ما

جعل منها حركة دينية متفتحة على العالم وأحد النماذج المسجدة للإسلام المعتدل المرن القابل للتواصل والعيش مع المجتمعات الآخرى .

4ـ ملامح التحديث عند الزاوية العلوية

يُشير مفهوم التجديد في الأدبيات السوسيولوجيا كحركة فكرية ومشروع نهضوي إلى " كل عمل أو مشروع أو إبداع يؤدي إلى واحدة من التطورات الاجتماعية أو الثقافية أو الاقتصادية أو السياسية في المجتمع بما يحقق الأفضل"[14] من خلال إستغلال وسائل التقدم العلمي الحديثة بأسلوب حديث بدلًا من الأساليب القديمة ويتجلى ذلك عبر تغيّر اتجاهات الأفراد وسلوكهم الإجتماعي والإقتصادي وضمن حركة إنتقال تدريجي من مجتمع تقليدي إلى مجتمع حديث يستند على العقل ويُعارض التقليد، كما يتضمن بعدا تطوريا في الذهنيات و يتأسس وفق نظرة متجددة تتمظهر عبر مختلف المستويات التنظيمية و الفكرية و الإجتماعية ليجعل من العقل أداة للتفكير والعمل والتنظيم، وهي رؤية تنسجم مع منهج شيوخ الزاوية العلوية الذين سعوا الى الإعلاء من شأن العقل والفكر والمعرفة عبر العديد من المواقف التي عكست فكرة تمسُّك الرجل الصوفي بنظرة متميزة للمستقبل الآتي عبر الدفع إلى رؤية حداثية مستقبلية للإسلام من خلال الإحتكاك بالإنجازات العلمية والفكرية والتقنية العالمية ، وأن الاسلام دين ذو رؤية معتدلة ومرنة قابلة للتعايش بشكل مريح مع الآخر و في ذات الوقت محافظ على تميزه وخصوصيته. وهو ما سعت الزاوية إلى تجسيده ضمن مسارها التاريخي وعبر ممارسات يمكن إبرازها ضمن مستويات وملامح جعلها شيوخ الزاوية العلوية عنوانا لنشاطاتهم منذ تشكلها لعلّ أبرز هذه المستويات نذكر:

1.4 على المستوى الشخصي

إن البارز في حياة الشيخ أحمد مصطفى العلوي الشيخ الأول للطريقة ومن جاء بعده أنها كانت حياة تجمع بين أصالة الإنسان المسلم المحافظ على قيمه ودينه ، وصفة الرجل المنفتح على العالم الخارجي في علاقاته مع الآخر فكان مرنا ومتسامحا غير متعصب محاور ومواكب للتقنيات العصرية بتطورها ومستخدما لها حيث "كان فهمه للإسلام يتميز بنفس التسامح وإتساع الأفق ولم يكن يُصر الا على ماهو جوهري منه ، فكل من جالسه أو تحادث معه الا ويجد فيه من الليونة وحسن الحوار وودية التبادل في الأراء ما لا يتصور في ذهن" [15]

2.4 على المستوى التنظيمي

برزت فلسفة التحديث لدى شيوخ الزاوية في طريقة هيكلتها وتنظيمها بإعتماد الأساليب الحديثة في تسيير مصالح وشؤون الزاوية كإعتماد المبعوثين والممثلين لتبليغ آراء الطريقة ، والكتّاب لتحرير المراسلات وردود الشيخ وتنظيم مواقيت يومه ورحلاته وقراءة البريد،كما أرست تحديثا إداريا من خلال مؤسسات إدارية مهيكلة متجددة عبر متطلبات العصر تُساعد على تسيير شؤون الزاوية منذ نشأتها الأولى من قبيل التأطير الإداري المتخصص ، ووالوسائل العصرية الضرورية المعتمدة في تسيير الهياكل الإدارية من أدوات ووسائل ومكاتب .

3.4 على المستوى التربوي

لقد أدركت الزاوية العلوية منذ نشأتها أهمية التعليم في تشكيل معالم النهضة الإجتماعية وهو ما جعلها تركز على تحديث برامج التعليم الذي اعتمدتها والتي جمعت فيها بين العلوم الشرعية والعلوم الحديثة

كما برز النهج الحداثي للزاوية عبر منهجها التعليمي الموجه إلى كل أفراد المجتمع الصغار والكبار ذكورا و إناثا، كما شمل إعتماد الزيارات الميدانية والدروس التطبيقية. إضافة إلى التكوين المهني و تعليم المريدين الحِرف عبر الورشات التي انشئت داخل فضاء الزاوية لمساعدة المتعلمين على إكتساب حرف ومهارات تقيهم شر الإنحراف والتسول مثل ورشة النجارة و الفلاحة و الحدادة وتربية النحل . كما عملت الزاوية في مرحلة معيّنة على التنسيق مع إدارة السجون للتكفُّل بالمساجين و تعليمهم حرف بهدف إعادة إدماجهم في المجتمع و تأهيلهم لسوق العمل وتسهيل تكيُفهم من جديد بهدف تعزيز ثقتهم في أنفسهم و في المجتمع .فكانت بذلك ترى أن التعليم وطلب المعرفة شرط لتكوين فرد واعي عقلاني وعصري ولبناء عقل قادر على بلوغ أعلى المراتب،و أن اكتساب العلوم الحديثة ضرورة لتحقيق التنمية والتواصل مع المجتمعات الأخرى ووسيلة للتحديث الاجتماعي والاقتصادي ضمن إطار أخلاقي وروحي ،حيث كانت المشاريع التعليمية لديها تجمع بين المعرفة العلمية العصرية والقيم الروحية، وعلى قدرة المشروعات التعليمية المتجددة غير التقليدية ومناهجها الحديثة على تعميق نشر المعارف الإسلامية وتنشئة الجيل الجديد تنشئة عصرية متأصلة ، كما برزت الرؤية الاستشرافية للطريقة العلاوية حول أهمية التعليم مما اعتمدوه من بناء للأقسام الدراسية داخل فضاء المساجد والإهتمام بالمراحل التعليمية الأولى من خلال فتح أقسام تحضيرية ومراكز لروضة الأطفال بهدف تأهيلهم ضمن أطر صحيحة لصناعة إنسان المستقبل وتنشئته تنشئة إسلامية سليمة كون الإسلام الحقيقي كان قد ربط بين العلم والإيمان

4.4 على المستوى الثقافي

وفي الجانب الثقافي اعتمدت الزاوية على توظيف وسائل عصرية في تحقيق أهدافها التربوية والإرشادية وغرس الوعي في نفوس المجتمع واستنهاض الهمم وإرشاد أبناء الأمة وهدايتهم لقيم الإسلام الصحيحة من خلال اعتماد منابر النشاط الإعلامي الصحفي عبر إصدار العديد من الصحف المكتوبة والتي حاولت من خلالها غرس الوعي الفكري و المحافظة على القيم الإسلامية من الانحراف ، إذ أصدرت الزاوية صحيفة لسان

الدين الأسبوعية عام 1923 صدر لها 14 عددا ثم توقفت عن الصدور في نفس العام ، ركزت في خطها الافتتاحي على الدفاع عن العقيدة الإسلامية الصحيحة ومحاربة التجنيس والإندماج والدعوة الى القومية الجزائرية والمحافظة على أصالتها وتقاليدها وهويتها. ثم أصدرت الزاوية جريدة البلاغ سنة 1926 والتي صدر لها 697 عددا لتتوقف عن الصدور عام 1947 والتي كانت استمرارية للنهج السابق ،كما كانت منبرا للكتّاب والشعراء والعلماء الجزائريين ، والتي تناولت مقالاتها مجالات متعددة دينية ،ثقافية ،إجتماعية وسياسية. كما أصدرت الزاوية عام 1936 جريدة لسان الدين الثانية والتي صدر لها ثمانون عددا لتتوقف من جديد.ثم مجلة المرشد عام 1946 وهي مجلة شهرية تصدر باللغة العربية والفرنسية تناولت مقالاتها الحياة الإجتماعية والسياسية والدينية للمجتمع، كما اهتمت بتغطية المؤتمرات والملتقيات الفكرية والعلمية المنظمة من قبل شيخ الزاوية صدر منها ثمانون عددا لتتوقف سنة 1951.ثم أصدرت مجلة أحباب الإسلام عام 1953 التي كانت تهدف لغرس ثقافة تبادل الحوار صدر منها 79 عددا للتوقف عام 1961.

إن إهتمام الزاوية بعالم الكتابة و النشر والتأليف كوسائل حديثة لنشر الثقافة الصوفية و الدفاع عن الإسلام و ثقافة المجتمع من الإنحلال والإندثار في ظل الإستعمار جعلت الشيخ احمد مصطفى العلوي يُفكر في إقتناء مطبعة خاصة به وهو ما تم فعلا سنة 1924 بمساعدة المريدين ، هذه المطبعة التي كانت تعد حسب الكثير من الكتابات التاريخية المطبعة الخامسة في الجزائر ذات لسان عربي. إضافة إلى ذلك اعتمدت الزاوية العلوية على تشكيل عديد الجمعيات الثقافية والإجتماعية والتربوية والعلمية والكشفية ، كما اهتمت بتشكيل جمعيات مدنية تهتم بالبيئة الخضراء كأدوات تربوية للنشأ وغرس القيم الاسلامية الصحيحة فيه. هذه الجمعيات التي كانت " لا تخرج عن خطتها في بث العلم والتعليم و أن تسعى جهدها في سعادة أبناء الوطن وإخراجهم من سجن الجهالة و الإختلاف إلى فضاء العلم وتسعى كل السعي في تحسين العلائق والروابط الودية بالوسائل التهذيبية الموافقة للشريعة الإسلامية مع مراعاة القوانين الدولية، وأول عمل تبتدئ به الجمعية تأسيس مجلة تحرر بالقلمين العربي والفرنسي ليتأتى لها أن تكون دائما في اتصال بينها وبين مشتركيها ويكون الجميع على بصيرة من أعمال الجمعية الواقعة والمتوقعة إذ لا غاية للجمعية من جميع أعمالها الا بث الراحة في الفكر والشعور مع الجد والإجتهاد فيما يناسب أبناء الوطن من التعليم والتهذيب والترقية في أنواع الصناعة"[16]. فمن الجمعيات التي شكلها شيوخ الزاوية على إمتدادها نذكر "الجمعية العلمية" والتي كانت تهدف لنشر العلم والمعرفة، و جمعية "الشبان العلاويين" والتي كانت تهدف إلى مواجهة التخريب الفكري والعقائدي ،وجمعية "التنوير" ، وجمعية "أحباب السلام" كجمعية إسلامية تعليمية خيرية والتي كانت تهدف إلى نشر وغرس ثقافة الحوار بين الحضارات والشعوب ،كما أسّست جمعية "الوعظ والإرشاد" والتي عملت على الدعوة والتعليم والإصلاح الإجتماعي.كما أنشأت الزاوية العلوية جمعية "الشيخ العلوي للثقافة والتراث الصوفي" عام 1990 ذات الطابع الإجتماعي التضامني الثقافي. كما عملت الزاوية على نشر الثقافة الإسلامية و الصوفية لدى الجالية المسلمة في أوروبا من خلال جمعية "أرض أوروبا "وفرع للكشافة الإسلامية بهدف إرساء مبادئ التراث الصوفي في فرنسا إضافة إلى اهتمامها بالمسرح والنوادي الرياضية .

بالإضافة إلى ذلك تبرز مؤسسة "الف للإعلام الآلي" كنموذج تحديثي حاولت من خلاله الزاوية منذ ثمانينيات القرن الماضي استعمال وتوظيف الوسائل الحديثة والرقمية في نشر التراث الإسلامي عبر تصميم بنك عالمي للمعطيات الإسلامية والتراث الروحي كالنصوص والوثائق التاريخية وتسهيل الوصول والإطلاع عليها من قبل عامة الناس بواسطة استخدام تكنولوجيات الإعلام الرقمي ، و بوضع برمجية لنظام الإعلام الآلي يحوي اللغات العربية والفرنسية. حيث تمكّنت الزاوية بإمكاناتها الخاصة ومساهمة المريدين أن تُنشئ خمسة برامج أولها برنامج "الفرقان" وهو عبارة عن برنامج يُساعد في قراءة وفهم النصوص القرآنية بطريقة سهلة وسريعة كما يسمح بقراءة حديثة للنصوص الاسلامية بطريقة تتلاءم وروح الاكتشاف العلمي العصري يتضمن البرنامج جزءا يختص بالبحث في القرآن الكريم وجزء يختص بالحديث النبوي الشريف ،يحتوي الجزء المتعلق بالقرآن الكريم على برنامج المعطيات العامة و الذي يُمكِن من الاطلاع على كل سور القرآن الكريم انطلاقا من اسم السورة او رقم ترتيبها وعدد أياتها ومكان نزولها ورقم الترتيب حسب النزول . كما يتضمن البرنامج أسباب نزول الأيات والسور وسياقها . وبرنامج النص القرآني والذي يمنح إمكانية البحث عن الأيات حسب عدد من معايير الإنتقاء مثل رقم السورة و الأية او الجزء و الحزب، او انطلاقا من كلمة او عدد من الكلمات او موضوع من المواضيع التي تعالجها آية او سورة معينة.

في حين يتضمن جزء الحديث كل الأحاديث النبوية الشريفة التي علقت على القرآن الكريم بشكل كامل وعلى بعض من الآيات. كما تضمن برنامج الفرقان فهرسا كما شمل معجم مفهرس للمترادفات يحوي 50000 مرجع للبحث عن طريق الكلمات ومترادفاتها.

وحفاظا على مصداقية وصحة هذه المحتويات كونها ترتبط بكتاب مقدس لا يحتمل التأويل او الخطأ وتحقيقا لأعلى درجات المصداقية تم الإعتماد على ملاحظات الكثير من الهيئات والمعاهد الدينية الإسلامية والتي قدمت ملاحظات حول محتويات البرنامج. اذ وبفضل ما تميّز به البرنامج من سهولة في تفسير القرآن الكريم باللغة الفرنسية اعتمادا على ما جاء في تفسير المستشرقة الفرنسية (دونيس ماسون1901-1994)

ثم ترجمة محمد حميد الله (1908-2002). تم انجاز برنامج أسباب نزول القرآن وسياقه وفق ما تداوله 16 مفسر وفق مبدأ التنوع الفكري وعلى أساس مختلف المشارب والإتجاهات تحقيقا لمبدء الإجماع بين العالم الإسلامي. ولتحقيق حق الإختلاف بين مختلف المقاربات النظرية والتوجهات الفكرية التي يزخر بها العالم الإسلامي وصولا للهدف المنشود وهو وحدة الأمة الإسلامية. ثم عملت الزاوية على البرنامج الثاني المسمى "تقية" والذي اختص بقواعد الاسلام ويحتوي على مواضيع فقهية تخص قواعد الإسلام الخمس الشهادتان،الصلاة ،الحج، الزكاة ، الصيام إضافة الى موضوع الطهارة. حيث مكّن البرنامج مستعمليه من الإطلاع على كل المعلومات المتعلقة بالفرائض والسنن والإجابات المحتملة لكل الإشكلات الفقهية.اذ يسهل البرنامج على المبتدئين في ممارسة الفرائض على سهولة تعلمها عن طريق تقديمها المعلومات الكافية بالنص والصورة. ليليه بعد ذلك برنامج لتسيير الوقت سمي "المواقيت" مستندا في ذلك على الخوارزميات طورها المعهد الفلكي لجامعة "بيسونسن" بفرنسا والذي مكّن من حساب وضبط مواقيت الصلاة الخمسة في أي موقع جغرافي يكون فيه المستعمل للبرنامج ، كما مكّن البرنامج من تحديد تاريخ بداية ونهاية شهر رمضان و الأعياد الإسلامية في كل مكان عبر العالم، و من التدقيق في تواريخ الرزنامات التاريخية الهجرية والميلادية واليونانية ومن البحث عن كل التواريخ سواء الماضية او المستقبلية للمناسبات والأعياد المختلفة. اضافة الى برنامج "الفريد" والذي يعتبر أهم البرامج كونه كان يعد من اوائل البرامج على المستوى العربي التي إهتمت بإدخال القرآن الكريم الى جهاز الكومبيوتر باللغتين العربية والفرنسية قبل ظهور ظهور برنامج الميكروسوفت وورد (Microsoft Word) في بداية 1983 حيث تم ذلك بواسطة برنامج msdos ،بالاضافة الى برنامج الأعلام والذي كان يهتم بوضع بطاقات فنية لأعلام العالم الاسلامي تضمنت سرد تاريخي للسيرة الذاتية لهؤلاء الأعلام .كما حاز معهد ألف للإعلام الآلي عام 1988 على رقم عبر خدمة "مينيتل" وهي خدمة على الخط مبنية على "فيديوتكس"يمكن الولوج إليها عبر خطوط الهاتف والتي كانت من أنجح الخدمات على الخط التي سبقت الويب تم إطلاقها في فرنسا عام 1982 بواسطة شركة الإتصالات والبريد الفرنسية لخدمة الجالية المسلمة في فرنسا من خلال تقديم خدمات معلوماتية عن الإسلام تضمنت المعلومات الثقافية والفتاوى الدينية . وهو ما جعل من مشروع الف يجسّد ملامح التحول الفكري لدى الزاوية العلوية كمؤسسة تقليدية أدركت أهمية التحكم في التكنولوجيات الحديثة كقناة أساسية لإكتساب المعرفة من جهة وفي وتوظيف هذه الوسائل لنشر المعارف الإسلامية والمحافظة عليها وللمساهمة في تشكيل فرد مسلم يجمع بين أصالة دينه ومتطلبات العصر الحديث ضمن إطار الانفتاح المنضبط لمجتمع كان و لا زال تقليديا في جميع مناحي الحياة ومنها طرق التعليم والدعوة إلى الدين .كما تم تجديد مشروع الف في الفترة الأخيرة عبر إعادة إحياءه بمبادرة من الشيخ خالد بن تونس الشيخ الحالي للطريقة العلاوية في "مشروع أحد" كإمتداد للمشروع الأول وبجيل جديد من الشباب المسلم أغلبهم من أبناء الجيل الذي أشرف على مشروع الف، ، بغية تسليط الضوء على ثراء و وحدة التراث الإسلامي وتبليغ رسالة ثقافة السلام للأجيال الجديدة .و المساهمة في إظهار إمكانية التراث الروحي في تقديم إجابات على التساؤلات والإهتمامات المعاصرة و إعادة الإعتبارلصورة الإسلام الحر و المسؤول. وإحياء التراث الإسلامي لدى الشباب ليتعاطوا معه برؤية جديدة تواكب عصرهم وتنهل من ثراء هذا التراث ومن القيم السمحة للدين الإسلامي. كل ذلك جعل من مشروع الف مبادرة علمية من حركة دينية صوفية تقليدية جسّدت مشروعها بفضل جهود وإمكانيات القائمين عليها وقوّة إيمانهم وصدق طموح مبتكر الفكرة الأول الشيخ خالد بن تونس لإدخال معالم التكنولوجيات الحديثة لمجتمع كان تقليديا في وسائله وبسيطا في طرق نشر المعارف الدينية والدعوة اليها. كما جعلت منه رسالة قوية مفادها ضرورة إندماج الفرد المسلم و إنفتاحه على الفضاء الخارجي لتشكيل معالم إنسان حداثي يجمع بين أصالة دينه ومتطلبات العصر الذي ينتمي إليه ضمن انفتاح منضبط على دمج التقليد بالحديث. و أن اكتساب العلوم الحديثة واستغلالها أصبح ضرورة لتحقيق التنمية والتواصل مع المجتمعات ووسيلة للتحديث الإجتماعي والاقتصادي ضمن إطار أخلاقي وروحي محدد. كما حاول الشيخ خالد بن تونس من خلال المشروع أن يؤسس لفكرة أن الاسلام بشكل عام والتدين الصوفي بوجه خاص هو نموذج للجمع بين الإلتزام الإخلاقي والإعتدال الفكري والتفكير العقلاني، وأنه يحمل قيّما قابلة لمسايرة مستجدات العلوم ، ولا يتحقق ذلك الا من خلال إعتماد وسائل عصرية لنشر قيّم المعرفة الاسلامية .كما أن المشروع هو إستمرارية وإمتداد للدور التعليمي للزوايا بوسائل حديثة، وهنا تظهر الروح الريادية للشيخ صاحب الرؤية البعيدة عبر تفكيره في مؤسسة خاصة من تمويل الزاوية لرقمنة الموروث الاسلامي والمساهمة في نشره وتثبيت دعائمه وتعميق معارفه بين الأمم وتنشئة الجيل الجديد تنشئة عصرية متأصلة. ما جعل من المشروع رسالة اجتماعية ورؤية اصلاحية و قيمة مضافة لخلق منتوج اسلامي عصري بطريقة مبتكرة وخدمة نوعية لتكون في متناول الجميع

لقد أكّد مشروع "الف" على أن النظم الإسلامية عامة والصوفية خاصة لا يمكن أن تكون مناقضة للتحديث الايجابي "بل أنها –الطرق الصوفية - تشكل طاقة حيوية تنعش الإنخراط الفكري داخل قيم الحداثة وتعرف كيف تتأقلم معها الى حد كبير "[17]. إضافة إلى هذا كانت الزاوية العلوية السبّاقة خلال السنوات الأخيرة في إمتلاكها للعديد من المواقع الإلكترونية ومنصة التواصل الاجتماعي والعناوين الرقمية على شبكة الانترنت والتي ساهمت في نشر القيم الصوفية والتعريف بها عبر كل بقاع العالم.

5.4 على المستوى الاقتصادي والاجتماعي

في الجانب الإقتصادي الإجتماعي تبنّت الزاوية العلوية العمل على استصلاح الأراضي وغرس الأشجار وتوفير الإيواء لعدد من أبناء السبيل وإطعام الطعام كما تبنّت فلسفة المقاولة التضامنية و الاقتصاد الاجتماعي كبديل تنموي حديث قائم على المبادرات والإبتكارات الفردية والجماعية بهدف تلقين الأفراد وتعليمهم للحرف والمهن لإكتساب فن الحياة ومواجهة التحديات عبر اكتساب قيّم حب العمل و اتقانه والاعتماد على الذات في تدبير الشؤون الخاصة بعيدا عن روح الاتكال، كما تبنت المساهمة في العديد من المشاريع الخيرية التضامنية في إطار مقاربة تشاركية تطوعية للمساهمين وضمن نشاط جمعوي مهيكل "حيث شغلت فكرة تزكية الروح لدى الفرد ليكون إجتماعيا فكر المدرسة العلوية ،كما سعت الى بناء شبكة من النظام الاجتماعي والمعرفي تنسجم وطبيعة وخصوصية المكان والزمان ،حيث المريد يستفتح يومه بالطاعة كسلوك تعبدي وبالتحضير المادي والمعنوي لليوم الجديد وما فيه من أعمال ومسؤوليات يشارك فيها غيره من أفراد المجتمع في عملية البناء الحضاري بمختلف أقسامه الإقتصادي والإجتماعي"[18]

6.4 على المستوى الفكري

تؤكد أفكار الشيخ الأول للطريقة مصطفى أحمد العلوي ومن جاء بعده فلسفة التنوير التي تحملها الطريقة والساعية لتجديد الممارسة الصوفية وإخراجها من القبب والزوايا من خلال إيمانه بفكرة المزج بين الأصالة والمعاصرة من خلال دعوة المريدين والمحبين السعي إلى مسايرة العصر وعدم اقتصار جهودهم حول قبور شيوخهم لتلاوة الذكر و إشعال الشموع، بل كان يدعو الى العمل والسعي في طلب الرزق والسير على وجه الأرض والإجتهاد واجتناء الخيرات ،و أن المسلم العاقل لا يكون كلاً على غيره .كما كان يدعو الإنسان المسلم لأن يكون ابن بيئته منسجما مع عصره شكلا ومحافظا على مضمون تدينه وإيمانه ونقاء فؤاده ، فكان يدعو إلى التدين الحقيقي الذي يجمع بين صدق الشكل والمضمون وكون " الشعائر الدينية ليست غاية في ذاتها ولكنها أداة ووسيلة للتقرب الى الله تعالى منبها وداعيا الى الإبتعاد عن الممارسات الميكانيكية للعبادات خوفا من أن تصبح هيكلا بلا روح[19] ولا يتحقق ذلك الا من خلال تطوير الفكر عبر تعلّم اللغات الأجنبية كونها لغة علم وحضارة واستغلال كل ما جادت به قريحة العلوم. ويتأكد هذا في قوله "لماذا تريدون منا نحن الذين نعاصر الحضارة الاوروبية أن لا نهتم بهذه الحضارة الرائعة، من ناحيتي فإنه لا يمر يوم بدون أن أوصي أتباعي بإرسال أطفالهم الى المدرسة لكي يتعلموا اللغة الفرنسية وعلى قيادة السيارة. ثم إن استيعاب الأعمال الرائعة لعلم الآلات لا يتعارض مع الدين ولا يمنع الإنسان من الوصول الى أعلى القمم في العلم. لقد قيل لي أن العالم باستور كان رجلا متدينا ولكن ذلك لم يمنعه من أن يقدم للإنسانية أكبر الخدمات عبر اكتشافاته الرائعة، ليس الدين إلا موجها وفقط. إنه يدعو الإنسان ليكون أفضل ويدمر في نفس الوقت غرائزه السيئة ،لو أراد الله أن يترك الإنسان لحاله لما أرسل إليه الرسل ومعهم التلمود والتوراة والإنجيل والقرآن ...إنها تُوجه الإنسان إلى الصراط المستقيم، مانقول به هو إحياء وتوطيد مبادئ ابراهيم وسليمان وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين"[20]. ومن ذلك أنه كان يشجع المهاجرين على اكتساب خبرات ومهارات حديثة للمساهمة بها في ترقية وتطوير بلدهم الأصلي ،فنجده يعتمد سياسة البعثات العلمية إلى الخارج من أفراد المجتمع الجزائري بهدف تطوير معارفهم ومهاراتهم وتنمية كفاءتهم المهنية من أجل توظيفها على المستوى المحلي .

وعلى ضرورة استخدام واستغلال كل ما يمكن أن يساعد الإنسان في الحصول على الرفاهية ،كما كان "يدعو الى عدم إهمال العقلانية على حساب الروحانية و إلى عدم الانغلاق في تدين ميكانيكي جامد"[21]. كل هذا يجب أن يكون بعلاقة وطيدة مع البعد الباطني و في توازن دائم بين الأمور الدنيوية والمقدسة.

كما جسّدت المؤسسة المتوسطية للتنمية المستدامة "جنة العارف" التابعة للزاوية العلوية صورة واضحة جلية تحمل دلالات حضارية جديدة للفكر الصوفي من خلال الأدوار الطلائعية والتربوية التي أضحت تنفرد بها ، فأصبحت منبرا حضاريا وفضاء يجمع بين أصالة المكان المشرقة ومعاصرة عالم المعرفة والحداثة بما تحتويه من معالم حضارية ورمزية تاريخية وقيّم حداثية.فالزائر للمكان لا بد عليه من مراجعة تلك الصورة الذهنية النمطية عن زوايا الصوفية ،فهي ليست كما وُسِّم للزوايا وسما زائفا عن ذلك المكان القابع في قمم الجبال والبعيد عن المدينة حيث يأوي إليه الفقراء والمتسولون ، بل هي على العكس من ذلك تماما تقع في وسط مدينة مستغانم ، اسمها يحوي دلالة عصرية عالمية يجمع بين الإمتداد الجغرافي للجزائر كدولة متوسطية ، وبين بعدها الهادف الى تحقيق التنمية المستدامة "المؤسسة المتوسطية للتنمية المستدامة " تابعة للزاوية ومنبرها الأصلي. بداخلها مشتلة وقاعة محاضرات بسعة 100 مقعد، مجهّزة بكل الوسائل التعليمية الضرورية لكل أنواع الإجتماعات واللقاءات العلمية.وتطل على ساحة كبيرة وهيكل للإستقبال والإقامة بسعة 78 سريرا.ومطبخ به مطعم يتسع لحوالي 200 مقعدا .تبلغ مساحة المؤسسة المتوسطية سبعة هكتارات وتتوفر على حديقة بمسافة ثلاث هكتارات محاطة بأشجار النخيل وأنواع عديدة منالأشجار ومركزا للأرشيف مجهز بأحدث التقنيات للحفاظ وحماية التراث الثقافي الجزائري، ومكتبة بها حوالي 6000 كتاب منها 2000 عبارة عن مخطوطات و مطبوعات نادرة جدا يعود تاريخها إلى القرن السابع عشر، بالإضافة الى المجلات (مجموعات كاملة من مجلات قديمة)،و 17000 بطاقة بريدية، إضافة الى 75000 صورة، 500 ملصق

بمختلف الاحجام ، كتيبات، مطبوعات وخرائط ، ووثائق سمعية بصرية و أكثر من 1000 شريط سمعي، فيديو، CD, DVD، أفلام ومقابلات، و ملتقيات، وبرامج إذاعية و تلفزيونية تم تسجيلها على مختلف الازمنة والمراحل . ورصيد ثري مكون من مطبوعات في أشرطة سمعية بصرية، هذا بالإضافة الى المئات من القصائد الصوفية والأغاني التقليدية التي يعود تاريخها إلى أكثر من قرن من الزمان[22]. هذا الرصيد الغني الذي يختزن تاريخ أمة بكاملها موجود الآن على مستوى "المكتبة العدلانية"والمتواجدة بجنة العارف حيث يُشرف عليها طاقم من المختصين في إدارة المكتبات والأرشيف ، والتي صارت مرجعا فريدا تستقبل مختصين وباحثين وطلبة من جميع أنحاء الجزائر و من الخارج للاستفادة من المعلومات المتاحة في المكتبة و الأرشيف .كما تصّيرت جنة العارف مزارا للبعثات العلمية والديبلوماسية العالمية بهدف الإطلاع واكتشاف معالم الاسلام الحضارية في أرقى صورها.

وهي كلها اجتهادات ومشاريع أكّدت على أن النظم الاسلامية عامة والصوفية خاصة لا يمكن أن تكون مناقضة للتحديث الايجابي والعقلانية المنتجة ، بل إنها تؤسس لفكرة أن الاسلام الصوفي نموذج للإعتدال والحداثة ، وأنه قابل لمسايرة مستجدات العلوم ولا يتحقق ذلك الا من خلال اعتماد وسائل عصرية وآليات متجددة لتكوين الفرد المسلم وهو ما تفطنت له الزاوية العلوية بشكل فعال.

هذه المؤشرات وغيرها التي سعت الزاوية العلاوية من خلالها العمل من أجل نشر تعاليم إسلام متجدد ومتحرر من قيود الماضي جعلت منظمة الأمم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو) تُعلن في شهر نوفمبر 2013 الإحتفال بمئوية تأسيس الطريقة العلاويةكمدرسة للتسامح و الحوار الديني والتأكيد على أن " الطريقة الصوفية العلاوية التي أسّسها الشيخ العلاوي جعلت من تعزيز الحوار بين الأديان أولويتها ، اذ تبيّن هذه الطريقة كيف يمكن تقديم خدمة أفضل للإنسانية وكيف يمكن محاولة تنسيق وتجميل العالم. إنها تقبل وتُجيز كل ما يمكن أن يحقق الراحة المادية للإنسان ولكن باتصال وثيق مع البعد الباطني ،والتوازن الدائم بين ما هو دنيوي وما هو مقدّس .وهي تراهن على المحبة الأخوية بين البشر، وتدعو في الواقع لعدم رفض العقلانية على حساب القيم الروحية، و إلى عدم الانغلاق ضمن تديّن فاتر"[23] .

خاتمة

يظهر من خلال هذه المؤشرات أن الزاوية العلوية كمؤسسة روحية تحمل رسالة اجتماعية ورؤية اصلاحية تسعى إلى تقديم قيمة اجتماعية، ثقافية وعلمية مضافة لخلق منتوج إسلامي عصري بطريقة مُبتكرة وخدمة نوعية لتكون في متناول الجميع، فكانت رسالتها دائما تقوم على فكرة أنه للخروج من مأزق التخلف والاستعمار والتبعية للآخر يجب تحقيق تواصل حضاري وعلمي من خلال اعتماد الوسائل التقنية الحديثة والأخذ بالمنجزات الصناعية بما يصب في مصلحة الناس وتنمية حياتهم.ما جعلها تمثل نموذجا حداثيا لمؤسسة صوفية تحمل مشروعا نهضويا اصلاحيا وتجديديا يجمع بين أصالة الإنسان المسلم ومسايرة مستجدات الواقع في تناغم وتناسق دائم .تعكس في مجملها انتقال الطريقة من الشكل التقليدي والنمطي للطرق الصوفية إلى شكل جديد أكثر انفتاحا على المجتمعات الأخرى . وهي معطيات تُؤسس على أن التصوف الإسلامي الحقيقي بإمكانه أن يكون بديلا لمشروع حضاري يحقق أهداف المجتمع. ما جعل منه فكرا قابلا للإندماج والتجديد " وإستيعاب الحداثة وسرعة التكيّف مع الزمان وتقلبات الحياة وقدرته على إستيعاب الحداثة بفضل حيوته الدائمة وتواصله مع مختلف الثقافات من المميزات الجذابة للتصوف"[24]

تضارب المصالح

❖ يعلن المؤلفان أنه ليس لديهما تضارب في المصالح.

المصادر والمراجع

1- منال عبد المنعم جاد الله ،التصوف في مصر والمغرب ، منشأة الاسكندرية،مصر، د ط ،1997، ص57

2- Daniel W. Brown. A New Introduction to Islam. wiley Black well.new jersey. Third Edition. 2017.page 221

3- ابن خلدون، المقدمة،دار يعرب ،دمشق،الطبعة1 ،2004 ،ص 517

4- سبنسر ترمنجهام ،ترجمة عبد القادر البحراوي،الفرق الصوفية في الإسلام، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ،بيروت ،لبنان، 1973،ص11

5- غزالة بو غانم ،الطريقة العلوية في الجزائر ومكانتها الدينية والاجتماعية،رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر ،كلية العلوم الانسانية ،جامعة منتوري قسنطينة ،الجزائر ،ص215

6- بن تونس خالد،التصوف قلب الإسلام ،دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع، بيروت ،لبنان،الطبعة 1 ،2005 ،ص70

7- أبو القاسم سعد الله ،تاريخ الجزائر الثقافي ،الجزء 4 ، منشورات دار الغرب الاسلامي ،بيروت ،لبنان ،1985 ،ص127

8- صلاح مؤيد العقبي ،الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشأتها ، دار البراق ، بيروت ، لبنان ، 2002 ،ص263

9- ناصر الدين موهوب الحسني،الشيخ مصطفى العلوي المستغانمي حياته ومآثره، منشورات العالمين ،الجزائر ،الطبعة 1 ،2015 ،ص297

10- ناصرالدين موهوب الحسني ، الشيخ مصطفى العلاوي المستغانمي حياته ومآثره ، مرجع سابق ، ص295

11- أمل حسني حلمي مهران ،الشيخ العلوي باعث النهضة الروحية في الغرب، مجلة البحث العلمي في الآداب،مصر ،العدد16 ،الجزء الرابع ،2015 ، ص6

12- بن تونس خالد،التصوف قلب الإسلام ،دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع ،بيروت ،لبنان،الطبعة 1 ،2005 ،ص154

13 -ايريك يونس جوفروا ، المستقبل الروحاني للاسلام ،ترجمة هاشم صالح، شركة نبض للنشر والتوزيع،القاهرة ،مصر ،الطبعة1 ، 2016،ص173

14- الزهرة بن عمر ،منصور بن زاهي ،تصورات الشباب للمساهمة في التحديث الاجتماعي،مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية،جامعة قاصدي مرباح ورقلة ، العدد 14،مارس 2014،ص139

15-مارسيل كاري،ذكريات الشيخ احمد بن مصطفى العلاوي ،المطبعة العلاوية،ط2 ،1987 ،ص6

16- بن تونس عدة، الروضة السنية في المآثر العلوية ،المطبعة العلوية ،مستغانم، الجزائر ،الطبعة1 ،1936 ، ص117

17- ايريك يونس جوفروا ،المستقبل الروحاني للاسلام ،ترجمة هاشم صالح ،شركة نبض للنشر والتوزيع،القاهرة ،مصر ،الطبعة1 ،2016،ص229

18- عبد القادر بن عزوز، معالم الاقتصاد التضامني الاجتماعي، أسسه ونتائجه ،دراسة عن الزاوية العلوية، مركز البحث في الاقتصاد المطبق من أجل التنمية الجزائر ،العدد 93 ، 2010 ،ص221

19- ناصر الدين موهوب الحسني ، الشيخ مصطفى العلوي المستغانمي، حياته ومآثره ،مرجع سابق، ص218

20- ناصر الدين موهوب الحسني ، الشيخ مصطفى العلوي المستغانمي، حياته ومآثره ،مرجع سابق، ص 295

21- ناصر الدين موهوب الحسني ، الشيخ مصطفى العلوي المستغانمي، حياته ومآثره ،مرجع سابق، ص 295

22- معلومات متوفرة على رابط مؤسسة جنة العارف على شبكة الانترنت،اطلع عليها يوم 2017-09-15 على الساعى 16.00

23 -htpp// :www :algerie1.com/actualite/lunesco-rend-hommage-au cheikh-al-alawi-/

24- عزيز الكبيطي إدريسي، التصوف الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، 2013،ص95

كيفية الإستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA :

المؤلفان بن دنية ميلود، اسعد فايزة زرهوني (2020)، ملامح التحديث في التدين الصوفي الزاوية العلوية أنموذجا، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، المجلد 12، العدد 02، جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف، الجزائر، الصفحات.ص ص : 256-265